

تفسير البحر المحيط

@ 22 { وَأَخَذُوا نَاهِيَهُمْ بِالْعَذَابِ } : { بِالسَّيِّئِينَ وَنَقَمِهِ مِّنَ النَّهْمَاتِ } و { الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَامَ } ، وذلك عقاب لهم ، وآيات لموسى { لَعَلَّاهُمْ يَرْجِعُونَ } عن كفرهم . قال الزمخشري : لعلمهم يرجعون ، أراد أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان . فإن قلت : لو أراد رجوعهم لكان . قلت : إرادته فعل غيره ، ليس إلا أن يأمره به ويطلب منه إيجاده ، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد ، والإداريين أن يوجد وبين أن لا يوجد على اختيار المكلف ، وإنما لم يكن الرجوع ، لأن الإرادة لم تكن قسراً ولم يختاروه . انتهى ، وهو على طريق الاعتزال . وقال ابن عطية : لعلمهم ، ترجح بحسب معتقد البشر وطنهم . .

{ وَقَالُوا يَا يَهُودُ مَا لَكُمْ أَلَيْسَ لَنَا بِمَنْعٍ لَّا يَنْزِلُ عَلَيْنَا مَطَّارٍ } : أي في كشف العذاب . قال الجمهور : هو خطاب تعظيم ، لأن السحر كان علم زمانهم ، أو لأنهم استصحبوا له ما كانوا يدعون به أولاً ، ويكون قولهم : { بِمَنْعٍ لَّا يَنْزِلُ عَلَيْنَا مَطَّارٍ } : إخبار مطابق مقصود ، وقيل : بل خطاب استهزاء وانتقاص ، ويكون قولهم : { بِمَنْعٍ لَّا يَنْزِلُ عَلَيْنَا مَطَّارٍ } ، أي على زعمك ، وقوله : { إِنْ زَلَّ لَنَا لَمْ يَهْتَدُوا } : إخبار مطابق على شرط دعائه ، وكشف العذاب وعهد معزوم على نكته . ألا ترى : { فَلَمَّآ كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذْ هُمْ يُنْكُثُونَ } ؟ وعلى القول الأول يكون قوله : { فَلَمَّآ كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذْ هُمْ يُنْكُثُونَ } جارياً على أكثر عادة الناس ، إذا مسه الضر تضرع ودعا ، وإذا كشف عنه رجع إلى عاداته الأولى ، كقوله : { فَلَمَّآ نَزَّاهُمْ إِلَى الْبَيْرِ إِذْ هُمْ يُشْرِكُونَ } ، ثم إذا كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره . وقوله : { بِمَنْعٍ لَّا يَنْزِلُ عَلَيْنَا مَطَّارٍ } ، ففكش { فَلَمَّآ كَشَفْنَا عَنْهُمْ } . وقوله : { فَلَمَّآ كَشَفْنَا عَنْهُمْ } ، فكشف { فَلَمَّآ كَشَفْنَا عَنْهُمْ } .

{ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ } : جعل القوم محلاً للنداء ، والظاهر أنه نادى عظماء القبط في محله الذي هو وهم يجتمعون فيه ، فرفع صوته فيما بينهم لتنتشر مقالته في جميع القبط . ويجوز أن يكون أمر بالنداء ، فأسند إليه . وسبب ندائه ذلك ، أنه لما رأى إجابة الدعوات موسى ورفع العذاب ، خاف ميل القوم إليه ، فنادى : { وَقَالَ يَا أَدَمُ * قَوْمُ * أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ } ، أراد أن يبين فضله على موسى بملك مصر ، وهي من إسكندرية إلى أسوان . { وَهَذَا ذِكْرُ الْإِنْفَارِ } : أي الخلد التي تجري من النيل ،

وأعظمها : نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس . والواو في { وَهَآذِهِ }
الآن { وَهَآذِهِ } واو الحال ، وتجري خبر . وهذه والأنهار صفة ، أو عطف بيان . وجوز أن تكون
الواو عاطفة على ملك مصر ، وتجري حال . من تحتي : أي من تحت قهري وملكي . وقال قتادة :
كانت جناها وأنهارها تجري من تحت قصره . وقيل : كان له سرير عظيم ، وقطع من نيل مصر
قطعة قسمها أنهاراً تجري من تحت ذلك السرير . وأبعد الضحك في تفسيره الأنهار بالقواد
والرؤساء الجبابرة ، يسيرون تحت لوائه . ومن فسرها بالأموال ، يعرفها من تحت يده . ومن
فسرها بالخيال فقليل : كما سمى الفرس بحراً يسمى نهراً . وهذه الأقوال الثلاثة تقرب من
تفاسير الباطنية . .

{ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } عظمتي وقدرتي وعجز موسى ؟ وقرأ مهدي بن الصغير : يبصرون ،
بياء الغيبة ؛ ذكره في الكامل للذهلي ، والسباعي ، عن يعقوب ، ذكره ابن خالويه . قال
الزمخشري : وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوى الربوبية همة من تعاطم بملك مصر ؟ وعجب الناس
من مدى عظمتهم ، وأمر فنودي بها في أسواق مصر وأزقتها ، لئلا تخفى تلك الأبهة والجلالة على
صغير ولا كبير حتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته . وكسر نون { أَفَلَا
تُبْصِرُونَ } ، عيسى . وعن الرشيد ، أنه لما قرأها قال : لأوليتها أحسن عبيدي ، فولها
الخصيب ، وكان على وضوئه . وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها ، فلما شارفها
ووقع عليها قال : أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال : { أَلَيْسَ لِي مُلْكُ
مِصْرَ } ؟ وإني لهي أقل عندي من أن أدخلها ، فثنى عنانه . { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ
هَآذِهِ الَّذِينَ هُوَ مَهِينٌ } : الظاهر أنها أم المنقطعة المقدرة ببل والهمزة ، أي بل
أنا خير . وهو إذا استفهم أهو خير ممن هو ضعيف ؟ لا يكاد يفصح عن مقصوده إذا تكلم ، وهو
الملك المتحكم فيهم ، قالوا له : بلا شك أنت خير . وقال السدي وأبو عبيدة : أم بمعنى بل
، فيكون انتقل من ذلك الكلام إلى إخباره بأنه خير ممن ذكر ، كقول الشاعر :